الفصل الثانى والعشرون

فى

نبذ من شعره

يندر فى البلغاء من تستوى له الإجادة فى الصناعتين فيجمع بين بلاغة النثر، وبراعة الشعر . وهما إذا اجتمعا لبليغ فقلما تساويا فى درجات البيان ، وطبقات التبيان . ولاشك فى أن الجاحظ قد بلغ فى الكلام المنثور الذروة العليا فى طبقات الفصاحة ، ومعارج الإبانة، ومراقى البلاغة، حتى صار إماماً فى أسلوبه ، وحتى تقاصرت دون بلوغ غايته همم الكتاب الذين جاءوا من بعده . ومع هذا فقد كان فى شعره يتطالع وراء الطبقة الوسطى من الشعراء . وكان ربما استعان بشعر غيره بين يدى حاجته ولا يرى فى ذلك بأساً . وقد تظهر دخيلته فى هذه الاستعانة ولا يخشى قول أحد ، لأن له من لسانه وقاية ، ومن بيانه حماية . على أنه ليس فى إمكاننا أن نترك هذا الكتاب دون أن نثبت فيه ما عثرنا عليه من شعره ، إن صحت رواية الرواة أن الشعر له :

١

روى الرواة أنه قال فى أبى الفرج نجاح بن سلمة قصيدة يسأله فيها إطلاق رزقه . ولم يبق منها إلا قوله :

أقامَ بِدَارِ الخَفْضِ رَاضٍ بِخَفْضِهِ
وذُو الحَزْمِ يَسْرِى حَيْثُ لاَ أَحَدٌ يَسْرِى (١)

(١) يريد بدار الخفض: الاقامة على الفقر والرضا به. وأن الراضى بهذه الحالة غير حازم ولا بعيد الهمة . وأما الحازم فهو بعيد الهمة كثير النشاط

يَظُنُّ الرِّضَا شيئاً يَسِيرًا مُهَوَّنًا ... ودُونَ الرِّضَا كأسٌ أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ (١)

سَوَاءٌ عَلَى الأَيَّامِ صَاحِبُ حُنْكَةٍ ... وآخَرُ كابٍ لا يَرِيشُ وَلا يَبْرِي (٢)

خَضَعْتُ لِبَعْضِ القَوْمِ أَرْجُو نَوَالَهُ ... وقَدْ كُنْتُ لا أُعْطِي الدَّنِيَّةَ بالقَسْرِ (٣)

فلَمَّا رَأَيْتُ القَوْمَ يَبْذُلُ بِشْرَهُ ... وَيَجْعَلُ حُسْنَ البِشْرِ وَاقِيَةَ الوَفْرِ (٤)

رَجَعْتُ عَلَى ظَلْعِي وَرَاجَعْتُ مَنْزِلِي ... فَصِرْتُ حَلِيفاً لِلدِّرَاسَةِ وَالفِكْرِ (٥)

والحركة ، لا يرضيه الدون من العيش ، ولكنه ما يزال معنيا بعظائم الأمور. وهو بهذا يعارض قول الشاعر :

يُقِيمُ الرِّجَالُ الأَغْنِيَاءُ بِأَرْضِهِمْ ... وَتَرْمِي النَّوَى بِالْمُقْتِرِينَ المَرَامِيَا

(١) يعنى مع هذا فان الرضا ليس بالشيء الهين اليسير

(٢) صاحب الحنكة :هو المجرب للأمور . والكابى : هو الغر الغمر المغفل . لا يريش ولا يبرى : هذا مثل عربى يضرب لمن لا خير فيه ولا غناء عنده

(٣) يريد أنه على شممه وإبائه قد دفعته الحاجة إلى قصد بعض الناس، وقد ظن فيه السماحة والكرم ، فخضع له ليستنزل سحائب جوده . مع أنه كان لا يتسامح مع نفسه فى أن يذل لأحد أو يذعن لدنية إلا إذا قهر عليها

(٤) يريد أنه لما رأى الناس الذين قصدهم فى حاجته ليس عندهم إلا حسن اللقاء والابتسام فى وجه قاصدهم وأنهم يجعلون ذلك وقاية لأموالهم. وهذا الصنف من الناس هو الذى عناه المتنبى بقوله :

جود الرجال من الأيدى وجودهم ... من اللسان فلا كانوا ولا الجود

(٥) يريد أنه لما رآهم على تلك الحال التى وصفها فى البيت السالف عاد على نفسه باللائمة ولزم منزله وانكب على الدرس والمطالعة والتفكير . ولا تحسبن أن الجاحظ كان فقيرا معدما؛ فقد كانت له موارد رزق غامرة، غير أنه على ما يظهر كان قد وقع فى ضيقة مالية اضطرته إلى قول ماقال ووصف ماوصف . أو أن هذا القول كان منه على طريق مجاراة الشعراء فى الاحتيال على الكرماء واختداع الأجواد

وَشَاوَرْتُ إِخْوَانِي فَقَالَ عَلِيمُهُمْ ... عَلَيْكَ الْفَتَى الْمُرِّيُّ ذَا الْخُلُقِ الْغَمْرِ (١)

أَعِيذُكَ بِالرَّحْمَنِ مِنْ قَوْلِ شَامِتٍ: ... أَبُو الْفَرَجِ الْأَمْوِيُّ صَدَّ فِي عَمْرِو (٢)

وَلَمْ يَكُ عَنْ عَيْبٍ وَاجِبًا لَرَأَيْتَهُ ... كَمَا كَانَ عَمْرٌو فِي الرِّخَاءِ مُيَسَّرَا (٣)

أَحُفَّ عَلَيْكَ الْبَغْيَ مِنْ كُلِّ حَاسِدٍ ... وَدُونَكَ مَنْحُوبٌ سَمَوْأَلُ مِنَ الشِّعْرِ (٤)

فَإِنْ تَرْعَ وُدِّي بِالْقَبُولِ فَأَهْلُهُ ... وَلَا يَعْرِفُ الْأَقْدَارَ غَيْرُ ذَوِي الْقَدْرِ (٥)

٢

قال: وقال في أحمد بن أبي دُؤاد:

وَعَوِيصٍ مِنَ الْأُمُورِ بَهِيمٍ ... غَامِضِ الشَّخْصِ مُظْلِمٍ مَسْتُورِ (٦)

قَدْ تَسَنَّمْتَ مَا تَوَعَّرَ مِنْهُ ... بِلِسَانٍ يَزِينُهُ التَّحْبِيرُ (٧)

مِثْلَ وَشْيِ الْبُرُودِ هَلْهَلَهُ النَّسْـ ... ـجُ وَعِنْدَ الْحِجَاجِ دُرٌّ نَثِيرُ (٨)

حَسَنُ الصَّمْتِ وَالْمَقَاطِعِ إِمَّا ... نَصَتَ الْقَوْمُ وَالْحَدِيثُ يَدُورُ (٩)

ثُمَّ مِنْ بَعْدُ لَحْظَةٌ تُوزِنُ الْيُسْـ ... ـرَ وَعَرْضٌ مُهَذَّبٌ مَوْفُورُ (١٠)

---

(١) الخلق الغمر: يعني الخلق العظيم

(٢) عمرو: هو المخاطب نفسه

(٣) وهذا البيت يحقق ما ظناه من أنه كان يحاول خدعه

(٤) الغواة: المخرب. الواهي الضعيف

(٥) هذا هو بيت القصيد

(٦) العويص: الصعب. والبهيم: المظلم المشتبه الذي لا معارف له ولا أعلام

(٧) تسنمت: ركبت. ما توعر: ما صعب وامتنع

(٨) يعني بكلامه هو لباقته وفصاحته وقوة ما في معانيه من حجج وما في الفاظه من رقة كأنه البرود الموشية الرقيقة النسج. الحجاج: الجدل والمناظرة

(٩) نصتوا: سمعوا

(١٠) ما أجمل الفتى الذي تصفه هذا البيت! فهو يقول إنه لحظة يختبر

٣

ومما كتبه إليه ، ولعلها من الأبيات الماضية:

لاَ تَرَانِي وإِنْ تَطَاوَلْتَ عَمْدًا ... بِنْ صَغِيرٍ وَأَنْتَ تَسِيرُ(١)

كُلُّهُمْ فَاضِلٌ عَلَيَّ بِمَالٍ ... وَلِسَانِي يَزِينُهُ التَّحْبِيرُ(٢)

فَإِذَا ضَمَّنَا الحَدِيثُ وَبَيْتٌ ... وَكَأَنِّي عَلَى الجَمِيعِ أَمِيرُ(٣)

رُبَّ خَصْمٍ أَرَقُّ مِنْ كُلِّ رُوحٍ ... وَلِفَرْطِ الذَّكَا يَكَادُ يَطِيرُ(٤)

فَإِذَا رَامَ غَايَتِي فَهُوَ كَابٍ ... وَعَلَى البُعْدِ كَوْكَبٌ مَنْهُورُ(٥)

٤

وروى يحيى بن المزرع أن الجاحظ قال يهجو الجماز . وتروى لعبد الصمد ابن المعذل :

نَسَبُ الجَمَّازِ مَقْطُو ... رٌ إِلَيْهِ مُنْتَهَاهْ

تَنْتَهِي الأَحْسَابُ بِالنَّا ... سِ وَلاَ يَعْدُو قَفَاهْ

يَتَنَاجَى مَنْ أَبُو الجَمَّا ... زِ فِيهِ كَانْتِبَاهْ

لَيْسَ يَدْرِي مَنْ أَبُو الجَمَّا ... زِ إِلاَّ مَنْ يَرَاهْ

أزاحت عنهم العسر، وأحلت بهم اليسر ، دون أن يراق لهم ماء وجه، أو يثلم لهم عرض

(١) من هذا البيت يتضح أن الجاحظ قد جمع إلى دمامة الخلق قصر القامة

(٢) يريد أنهم أكثر منه مالا ولكنه أحلى منهم لسانا

(٣) يعنى أنه حينما يكون معهم فى بيت ويجرى بينهم الحديث سادهم وكأنه عليهم أمير بحسن بيانه وجميل اقتناله

(٤) يعنى أن خصمه مهما أوتى من خفة الروح ورقة سحر البيان ومن الذكاء الخارق كان كما وصفه فى البيت التالى

(٥) يعنى أن خصمه مع ما هو عليه من الصفات التى أبانها فى البيت الماضى لن يبلغ شأوه ولن يصل إلى غايته

٥

وروى له أبو العيناء هذه الأرجوزة فى الخضاب :

زُرتُ فَتاةً مِن بَنى هِلالِ
فاستَعْجَلَتْ إِلَىَّ بالسُّؤالِ :
مَالِى أَرَاكَ قَانِيَ السِّبالِ[1]
كأنما كَرَعْتَ فى جِرِيالِ[2]
مَا يَبْتَغِى مِثْلُكَ مِن أمثالِى؟!
تَنَحَّ قُدَّامِى وَمِن حِيَالِى

٦

وقال فى فضل العلم والعلماء :

يَطِيبُ العَيْشُ أَنْ تَلقَى حَكِيماً غَذَاهُ العِلْمُ وَالفَهمُ المُصِيبُ
فيكْشِفَ عَنكَ حَيْرَةَ كلِّ جَهلٍ وَفضلُ العِلمِ يَعْرِفُهُ اللَّبِيبُ
سَقَامُ الحِرصِ لَيسَ لَهُ شِفَاءٌ وَدَاءُ الجَهلِ لَيسَ لَهُ طَبِيبُ

٧

وفى رواية الخطيب البغدادى أن أبا العيناء قال : قال إبراهيم بن رباح: أتانى جماعة من الشعراء فأنشدنى كل واحد منهم ، وكل يدعى أنه مدحنى بهذه الأبيات :

بَدَا حِينَ أَثرَى بِإِخْوَانِهِ فَفَلَّلَ عَنهُم شَبَاةَ العَدَمِ[3]

(١) قانى السبال : مصبوغ الشاربين باللون الأحمر
(٢) يريد أن حمرة شاربيه كمن شرب خمرا أو عب فيه فأثر لون الخمر فى شاربيه
(٣) فلل شباة العدم : أذهب عنهم حدة الفقر

وذَكَّرَهُ الحزْمُ صَرْفَ الزَّمَا ... نِ فَبَادَرَ قَبْلَ انتِقَالِ النِّعَمْ[1]
فَتًى خَصَّهُ اللهُ بالمَكْرُمَا ... تِ فَمَازَجَ مِنْهُ الحيَا بالكَرَمْ
إذَا نِعْمَةٌ قَصُرَتْ عَنْ يَدٍ ... تَنَاوَلَهَا بِجَزِيلِ الهِمَمْ
وَلَا يَنْكُتُ الأَرْضَ عِنْدَ السُّؤَا ... لِ لِيَقْطَعَ زُوَّارَهُ عَنْ نَعَمْ

قال : وكان اللاحقيُّ منهم ، وأحسبها له . ثم آخر من جاءنى الجاحظ وأنا والى الأهواز ، فأعطيته عليها ، ثم كنت عند ابنِ أبى دؤاد فدخل إلينا الجاحظ فالتفت إلىّ ابنُ أبى دؤاد فقال : يا أبا إسحق ، قد امتُدِحت بأشعار كثيرة ماسمعت بشىء وقع فى قلبى وقبلته نفسى مثل أبيات مدحنى بها أبو عثمان ؟! ثم أنشدنيها بحضرته « بدا حين أثرى بإخوانه » فقلت : وجد أيدك الله مقالا ! ؟ . . . قال : وعجبت من عمرو وسكوته ، ولم أذكر من ذلك شيئاً . . . !

٨

وقال فى إبراهيم بن رباح :

وعَهْدِى بِهِ وَاللهُ يُصْلِحُ أَمْرَهُ ... رَحِيبُ مَجَالِ الرَّأْيِ مُنْبَلِجُ الصَّدْرِ
فلاَ جَعَلَ اللهُ الْوِلَايَةَ سُبَّةً ... عليهِ فإنِّى بالْوِلَايَةِ ذُو خُبْرِ
فقَدْ جَهَدُوهُ بالسُّؤَالِ وَقَدْ أَبَى ... بِهِ المَجْدُ إلَّا أَنْ يَلِجَّ وَيَسْتَشْرِي[2]

٩

وقال فى الخضاب :

إنْ حَالَ لَوْنُ الرَّأْسِ عَنْ حالِهِ ... ففى خِضَابِ الرَّأْسِ مُسْتَمْتَعُ[3]

(١) فى رواية : وذكره الدهر . وما أثبتناه أفضل
(٢) يلج ويستشرى : يبالغ فى شأنه فى الكرم
(٣) فى رواية . ففى خضاب المرء

هَبْ مَنْ لهُ شَيْبٌ لهُ حِيلَةٌ فَمَا الَّذِى يَحْتَالهُ الأَصْلَعُ[1]

١٠

وروى أبو الحسن البرمكى له :

وكَانَ لَنا أَصْدِقاءٌ مَضَوْا تَفَانَوْا جَمِيعاً وَما خَلَّدُوا
تَسَاقَوْا جَمِيعاً كُؤُسَ الْمَنُو نِ فَمَاتَ الصَّدِيقُ وَمَاتَ الْعَدُو

١١

ومما روى له وهو مريض:

لَئِنْ قُدِّمَتْ قَبْلِى رِجَالٌ فَطَالَمَا مَشَيْتُ عَلَى رِسْلِى فَكُنْتُ الْمُقَدَّمَا
ولَكِنَّ هَذَا الدَّهْرَ تَأْتِى صُرُوفُهُ فَتُبْرِمَ مَنْقُوضًا وَتَنْقُضَ مُبْرَمَا

(١) وفى رواية :

هب أن من شاب له حيلة فما الذى تحنى له الأصلع

والذى أثبتناه أجود

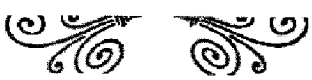

الفصل الثالث والعشرون

فى

هجو الشعراء له

ليس بدعاً أن يوجد فى قالة الشعر من يعرض للجاحظ بالهجو ، ومع هذا فلم يهجه منهم إلا من لاخطر له ولا شأن من الشعراء . أما ذوو الأخطار منهم وأصحاب الأقدار فيهم ، فقد عرفوا منزلته ، وأدركوا مكانته ، وصارت الأمنية الكبرى التى يصبوا إليها الشاعر منهم هى أن يذكره الجاحظ فى بعض كتبه ، ولو من طريق النقد والملاحظة ، أو التندر والفاكهة ، فإنه يضمن بذلك أن يتردد ذكره فى الآفاق ، ويبلغ صيته السبع الطباق .

١

يروى أن صديقه أبا كريمة البصرى قال يعاتبه ويقرعه :

لَم يَظْلِمِ اللهُ عَمْرًا حينَ صَيَّرَهُ ... مِنْ كلِّ شىْءٍ سِوَى آدابِهِ عارِى
بَنَّتْ حِبَالَ وِصالِى كفُّهُ قُطِعَتْ ... لَمَّا اسْتَعَنْتُ بِهِ فى بَعْضِ أَوْطَارِى
فكُنْتُ فى طَلَبِى مِنْ عِنْدِهِ فَرَجًا ... كالمُسْتَغِيثِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بالنَّارِ
إِنِّي أُعِيذُكَ وَالمُعْتَاذُ مُحْتَرِسٌ ... مِنْ شُؤْمِ عَمْرٍو وبعزِّ الخالقِ البَارِى
فإِنْ فَعَلْتَ لَحظٌّ قَدْ ظَفِرْتَ بِهِ ... وإِنْ أَبَيْتَ فقدْ أَعلَنْتُ أَسرَارِى

٢

وقال بعض خصوم المعتزلة يهجوه :

لَوْ يُمْسَخُ الخِنزِيرُ مَسْخًا ثانيًا ... مَا كانَ إلاَّ دُونَ قُبْحِ الجاحظ

رَجُلٌ يَنُوبُ عَنِ الجَحِيمِ بِنَفْسِهِ وَهُوَ القَذَى فِى كُلِّ طَرْفٍ لَاحِظِ

٣

وقال الجماز فى رده عليه :

يافَى نَفْسُهُ إلى الكفرِ باللهِ تائِقَهْ
لكَ فى الفضلِ والتَّزَهُّدِ والنُّسْكِ سابِقَه

٤

وقال فيه :

قالَ عمرٌو مُفاخِرًا: نحنُ قَوْمٌ مِنَ العَرَبْ
قُلْتُ : فى طاعَةِ لرَبِّكَ أبْلَيْتَ ذَا النَّسَبْ

الفصل الرابع والعشرون

فى

مرضه وما قيل فى سببه . وموته

كان ابتداء مرض الجاحظ فى أواخر عهد الخليفة جعفر المتوكل على الله العباسى، أى فى سنة ٢٤٧ هـ . والظاهر أنه لم ينقطع عن الكتابة والتأليف طوال مدة مرضه ، مما يدل على أنه كان على جانب عظيم من قوة البنية ، وشدة الأسر ، ومتانة الأعصاب ، وحضور الذهن ، وقوة العقل . ولا عبرة بما وصف به نفسه ، أو بما وصفه به غيره ، من شدة وقع المرض عليه . فمن البديهى أن ذلك قد كان فى أول وقع الاصابة به ، أو فى أواخر أيامه واقتراب أجله وتدانى ساعته . ومع هذا فمن الثابت أنه لم يمت حتى وقعت عليه أجلاد الكتب فقطعت أنفاسه . وقد ظل مفلوجا ثمانية أعوام مُجَرَّمَة . من سنة ٢٤٧ إلى سنة ٢٥٥ وإليك ماقيل فى ذلك :

١

نقل ابن أبى أصيبعة[١] من خط ابن بطلان[٢] الطبيب : أن أبا عثمان

---

(١) هو موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجى، عرف بابن أبى أصيبعة، أحد أفاضل العلماء فى القرن السابع. وقد ألف كتابه « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » برسم خزانة أمين الدولة ابن غزال وزير الملك الصالح بن الملك العادل صاحب دمشق . توفى بصرخد سنة ٦٦٨ هـ

(٢) هو أبو الحسن المختار بن عبد ون . وقيل عبدون . المعروف بابن بطلان . طبيب ماهر ، ومنطق فاضل ، وكاتب بارع . نشأ ببغداد نصرانيا . ثم رحل إلى الجزيرة والموصل وديار بكر ، وأقام بحلب زمنا ، وكان له فيها

الجاحظ ويوحنا بن ماسويه [١] اجتمعا — فى ظن ابن بطلان — على مائدة إسماعيل بن بلبل [٢] (قلت : الصواب أنهما اجتمعا على مائدة أحمد بن أبى دؤاد) وكان فى جملة ماقدم مَضِيرَةٌ بعد سمك ، فامتنع يوحنا من الجمع بينهما ، فقال له أبو عثمان : أيها الشيخ ، لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاد له ؛ فإن كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له ، وإن كانا من طبع واحد فلتحسب أنا قد أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا ؟ فقال يوحنا : والله مالى خبرة بالكلام ، ولكن كل يا أباعثمان وانظر ما يكون فى غد . فأكل أبو عثمان ، نصرة لدعواه ، ففلج فى ليلته ! فقال : هذه والله نتيجة القياس المحال.

شأن، ثم وفد على مصر ولقى بها ابن رضوان الطبيب المصرى وجرت بينهما مناظرات ومجادلات . وله من الكتب « دعوة الأطباء » وهو كتاب ظريف. ورحلته مدون منها الشىء الكثير فى بطون الكتب. توفى بدير اتخذه لنفسه بانطاكية بعد أن ترهب زمنا سنة ٤٤٤ هـ

(١) هو أبو زكريا يوحنا بن ماسويه . طبيب سريانى، خدم الرشيد بطبه وتولى له ترجمة كتب الطب القديمة، وظل فى خدمة الخلفاء العباسيين إلى أيام المتوكل . وكان ذا جاه عظيم ، وقدر جليل. وكان له مجلس يحضره العلماء والتلاميذ للبحث والنظر . وكان به ضيق صدر وحدة تخرج به إلى النكتة النادرة والملحة المضحكة . وكان سلموه يصفه بالفضول ويحذر من الاعتماد على ما يصفه من الأدوية. ومن عجيب كلامه قوله لابن حمدون النديم، وقد عيبه : لو كان مكان ما فيك من الجهل عقل وقسم على مائة خنفساء لكانت كل واحدة منهن أعقل من أرسطوطاليس؟. توفى ببغداد سنة ٢٤٣ هـ

(٢) هو أبو الصقر إسماعيل بن بلبل أحد وزراء المعتمد الذين جمع لهم السيف والقلم. وكان يسمى الوزير الشكور . وكان كريما متجملا ينتسب إلى بنى شيبان، وكان يعتز فى نسبه. وقد مدحه الشعراء مثل البحترى وابن الرومى ثم هجاه ابن الرومى فأفحش. قبض عليه المعتمد وعلى أسبابه وحبس إلى أن مات فى محبسه سنة ٢٧٨ هـ

٢

وقال أبو مَعاذ عَبْدَانُ الخُوَّىُّ المتطبب : دخلنا بسر من رآى على عمرو بن بحر الجاحظ نعوده وقد فلج، فلما أخذنا مجالسنا أتى رسول المتوكل فيه . فقال: وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل ، ولعاب سائل ؟ ثم أقبل علينا فقال : ماتقولون فى رجل له شِقان : أحدهما لو غرز بالْمِسَالّ ما أحس ، والآخر يمر به الذباب فَيَعُوثُ . وأكثر ما أشكوه الثمانون . ثم أنشدنا أبياتا من قصيدة عَوْفِ بْنِ مُحَلِّمِ الْخُزَاعِىِّ[1] قال أبو معاذ : وكان سبب هذه القصيدة أن عوفا دخل على عبدِ الله بن طاهر [2] فسلم عليه عبدُ الله فلم يسمع ، فأُعلم ذلك . فزعموا أنه ارتجل هذه القصيدة ارتجالا — فأنشده :

يا ابْنَ الذى دَانَ لهُ المَشْرِقَان طُرًّا وقَدْ دَانَ لهُ المَغْرِبَانْ[3]

(١) هو أبو محلم عوف بن محلم الخزاعى . أحد أفراد الأدباء الرواة الفهماء ، وكان شاعرا بليغا ونديما ظريفا، وكان عارفا بالنوادر والأخبار وأيام الناس. اختصه طاهر بن الحسين بمنادمته ومسامرته ، ثم اصطفاه عبد الله بن طاهر لنفسه وطالت صحبته له ، وكان لا يكاد يفارقه فى سفر ولا حضر. وله فيه شعر جيد ونوادر حسنة . مات سنة ٢٢٠ هـ

(٢) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر ، كان أميرا جليلا عالى الهمة ذا شهامه وصرامة وإقدام ، وكان سيداً نبيلا سخيا كريما . ولاه الخليفة المأمون فيما ولاه من الأعمال الديار المصرية . وللشعراء فيه مدائح وله إليهم منائح . وكان مع هذا شاعرا مجيدا وكاتبا بليغا وأديبا بارعا . وله حروب ومشاهد كان الظفر فيها دائما فى جانبه . ومايسمى بمصر بالعبدلاوى، وهو البطيخ الأصفر، إنما ينسب إليه، لأنه، على ما قيل ، هو الذى جاء به من خراسان وزرعه بمصر، وكان يستطيبه فى إبانه . وكان واسطة عقد الأسرة الطاهرية التى كان العباسيون يكلون إلى أفرادها القيام بعظائم الأمور وكبار المهام فى الدولة . توفى بمروسنة ٢٣٠ هـ

(٣) دان : خضع وأتمر بأمره . ويروى بدل الشطر الثانى (وأكثر الأمر به المغربان)

إِنَّ الثَّمَانِينَ — وَبُلِّغْتَهَا — قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانْ (١)

وَبَدَّلَتْنِي بِالشَّطَاطِ انْحِنَا وَكُنْتُ كَالصَّعْدَةِ تَحْتَ السِّنَانْ (٢)

وَبَدَّلَتْنِي مِنْ زَمَاعِ الفَتَى وَهِمَّتِي هَمَّ الجَبَانِ الهِدَانْ (٣)

وَقَارَبَتْ مِنِّي خُطًا لَمْ تَكُنْ مُقَارَبَاتٍ وَنَأَتْ مِنْ عِنَانْ (٤)

وَأَنْشَأَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ الوَرَى عَنَانَةً مِنْ غَيْرِ نَسْجِ العَنَانْ (٥)

وَلَمْ تَدَعْ فِيَّ لِمُسْتَمْتِعٍ إِلَّا لِسَانِي وَمَحَبِّي لِسَانْ (٦)

أَدْعُو بِهِ اللهَ وَأُثْنِي بِهِ عَلَى الأَمِيرِ المُصْعَبِيِّ ابْنِ هَجَانْ (٧)

قَدْ هِمْتُ بِالأَوْطَانِ وَجْدًا بِهَا وَبِالمَغَانِي أَيْنَ مِنِّي المَغَانْ (٨)

---

(١) بلغتها : بلغت إليها، يعني سن الثمانين . وهو دعاء محبوب

(٢) الشطاط : اعتدال القد مع الطول والاستقامة . الصعدة : قناة الرمح المستوية الطول بلا تثقيف

(٣) الزماع : بادرة القوة والنشاط والمضاء في الامر . الهدان : الأحمق الثقيل

(٤) يعني أن طول السنين قاربت خطوه وقلت عنانه أي أخذت من حدته

(٥) العنانة : السحابة . يشير إلى أن بصره قد ضعف ونزل الماء بعينيه حتى أصبح لا يكاد يرى الأشياء إلا وكأنه ينظر من وراء سحابة

(٦) يعني أن فصاحته وبيانه هما اللذان أبقاهما له الدهر دون سائر مزاياه ، وحسب من نادمه بهما من متعة

(٧) المصعبي : المنسوب الى مصعب . لأنه عبد الله بن طاهر بن الحسين ابن مصعب بن زريق . الهجان : الرجل الكريم الحسيب . ويروى (صنع الأمير المستنير الهجان)

(٨) المغاني : الديار . ويروى : وهمت بالأوطان وجدا بها ، والغواني أين مني الغوان)

فقرّبانى بأبى أنتما ... من وطنى قبل اصفرار البنان[١]
وقبل منعاى إلى نسوة ... أوطانها حرّان والرّقّتان[٢]
سقى قصور الشاذياخ الحيا ... من بعد عهدى وقصور المبان[٣]
فكم وكم من دعوة لى بها ... أن تتخطّاها صروف الزمان[٤]

قلت : الاجماع على أنه لم يبرح البصرة منذ مرض ، ولهذا فانى أجد فى رواية أبى. معاذ ضعفا..!

٣

وفى خبر يموت بن المزرع أن المتوكل ، فى السنة التى قُتل فيها ، وجه إلى الجاحظ أن يُحمل إليه من البصرة ، وقد سأله الفتح بن خاقان ذلك ، فوجده لا فضل فيه ، فقال لمن أراد حمله : ما يصنع بامرىء ليس بطائل ، ذى شق مائل ، ولعاب سائل ، وفرج بائل ، وعقل زائل ، ولون حائل ؟

٤

قال يموت : ودخل إلى خالى أناسٌ من البصرة من أصدقائه فى العلة التى مات فيها ، فسألوه عن حاله فقال :

---

(١) قبل اصفرار البنان : يعنى قبل أن يدركنى الموت . لأن البنان لاتصفر إلا بالموت

(٢) قبل منعاى : قبل أن أنعى إليهم ويبلغهم خبر موتى . حران : مدينة عظيمة كانت حاضرة ديار مضر فتحت فى عهد عمر بن الخطاب على يد الفاتح العظيم عياض بن غنم. ومنها الحرانيون الصابئون الذى كان لهم شأن فى الطب والفلسفة والعلوم على عهد الدولة العباسية . الرقتان ، مثنى الرقة : وهى بلدة قريبة من حران. ولعلها كانت منازل عوف بن ملحم

(٣) قصور الشاذياخ : هى قصور كانت لعبد الله بن طاهر فى قرية الشاذياخ من أرباض نيسابور . الحيا : المطر . ولعل قصور المبان كانت أيضا لآل طاهر بن الحسين

(٤) صروف الزمان : مصائبه وجوائحه

عَلِيلٌ مِنْ مَكانَيْنِ مِنَ الأَسْقامِ وَالدَّيْنِ

ثم قال : أنا فى هذه العلة المتناقضة التى يُتخوف من بعضها التلف ، وأعظمها نيف وتسعون سنة — يعنى عمره . قال : وكان يُطلى نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته ، والنصف الآخر لو قرض بالمقاريض ماشعر به من خدره و برده .

٥

وقال بعض البرامكة العمال : كنت تقلدت السند فأقمت بها ماشاء الله ، ثم اتصل بى أنى صُرفت عنها . وكنت قد كسبت بها ثلاثين ألف دينار ، فخشيت أن يفجأنى الصارف فيسمع بمكان المال فيطمع فيه ، فصنعته عشرة آلاف إهليلجة ، ولم يلبث الصارف أن أتى ، فركبت البحر وانحدرت إلى البصرة ، فخبرت أن الجاحظ بها وأنه عليل بالفالج ، فأحببت أن أراه قبل وفاته ، فصرت إليه فأفضيت إلى باب دار لطيف فقرعته ، فخرجت إلىّ جارية صفراء فقالت : من أنت ؟ فقلت : رجل غريب وأحب أن أسر بالنظر إلى الشيخ . فبلغته الخادم ما قلت ، فسمعته يقول : قولى له : وما تصنع بشق مائل ، ولعاب سائل ، ولون حائل ؟ فقلت للجارية : لابد من الوصول إليه ! فلما بلغته قال : هذا رجل قد اجتاز بالبصرة وسمع علىّ فقال أحب أن أراه قبل موته فأقول قد رأيت الجاحظ . ثم أذن لى فدخلت وسلمت عليه ، فرد ردا جميلا وقال : مَن تكون أعزك الله ؟ فانتسبت له . فقال : رحم الله تعالى أسلافك وآباءك السُّمحاء والأجواد ، فلقد كانت أزمانهم رياض الأزمنة ، ولقد انجبر بهم خلق كثير ، فَسَقْياً لهم وَرَعْياً . فدعوت له وقلت : أسألك أن تنشدنى شيئاً من شعرك ؟ فأنشد لى :

لَئِنْ قَدَّمَتْ قبلى رجالٌ فطالَما مَشَيْتُ عَلى رسلى فكُنْتُ المُقدَّما

ولكنَّ هَذا الدَّهْرَ تأْتى صروفُهُ فَتُبرِمَ مَنْقُوضاً وتَنقُضَ مُبرَما

ثم نهضت فما قاربت الدهليز قال : يا فتى ، أرأيت مفلوجا ينفعه الإهليلج ؟ فقلت : لا! قال : فإن الإهليلج الذى معك ينفعنى ، فابعث إلىّ منه . فقلت : نعم .! وخرجت متعجبا من وقوفه على خبرى مع كتمانى له ، وبعثت إليه مائة إهليلجة .

قلت : إذا صحت هذه الرواية فقد يظهر أن الجاحظ تسقط خبر الإهليلج من فلتات لسان البرمكى دون أن يشعر ، أو أنه يعلم أن العمال هكذا يصنعون فى أموالهم خوفا من المصادرات ، وإلا فالجاحظ من أبعد الناس عن ادعاء علم الغيب أو الشعوذة .

٦

وشكا يوما لطبيب علته فقال : قد اصطلحت الأضداد على جسدى ، إن أكلت باردا أخذ برجلى ، وإن أكلت حارا أخذ برأسى !!

٧

وقال أبو العباس المبرد : عُدت الجاحظ فسمعته يقول : أنا من جانبى الأيسر مفلوج فلو قُرِض بالمقاريض ما علمت ، ومن جانبى الأيمن مُنَقْرَس[1] فلو مر بى الذباب لألمت ، وبى حصاة لا ينشرح لى البول معها ، وأشد ما على ستٌ وتسعون — يعنى عمره .

٨

وقال أبو طاهر : صرت إلى الجاحظ ومعى جماعة ، وقد أسن واعتل فى آخر عمره ، وهو فى منظرة له ، وعنده ابن خاقان جاره ، فقرعنا الباب فلم يفتح لنا وأشرف من المنظرة وقال : ألا إنى قد حَوْقَلْتُ وَحَمَلْتُ رُمَيْحَ

(١) منقرس : مصاب بالنقرس ، وهو داء المفاصل ، ويسمى بالعربية : الرثية

أبى سعد ، وسقت الغنم[١] فما تصنعون بى ؟!! سلموا سلام الوداع ؟ فسلمنا وانصرفنا .

وما زال فى علته هذه إلى أن وقعت عليه مجلدات العلم فقضت عليه. رحمه الله. وذلك فى نهاية سنة ٢٥٥ هـ و ٨٦٨ م

ولما مات وصل نعيه إلى قصر الخلافة فى بغداد فأسف الخليفة المعتز بالله[٢] عليه أشد الأسف ،وقال ليزيد بن محمد المهلبى[٣] : يا يزيد ، ورد الخبز بموت الجاحظ ؟ ؟ ! فقال:لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام النعماء . .!!

ورثاه أبو شراعة القيسى[٤] بقوله :

---

(١) حوقلت:استعددت القوة من الله تعالى وأكثرت من قول لا حول ولا قوة إلا بالله . لتتابع المرض . رميح أبى سعد:هو رجل من العرب أسن وحنت ظهره السنون فكان يستعين بالعصا . فقيل لكل من شاخ : أخذ رميح أبى سعد . سقت الغنم : كناية عن الانحناء هرما . لأن سائق الغنم يكثر من طأطأة رأسه وتقويس ظهره

(٢) هو أبو عبد الله المعتز بن المتوكل على الله الخليفة العباسى ولد سنة ٢٣١ وتولى الخلافة سنة ٢٥٢ وخلعه الأتراك سنة ٢٥٥ هـ ومات فى هذه السنة . وله أحداث وغير مع أخيه المستعين وغيره

(٣) هو أبو خالد يزيد بن محمد المهلبى : كان أديبا شاعرا متفننا . وكان من أحاسن ندماء الملوك والخلفاء . . نادم المنتصر وهو ولى عهد . ثم نادم المتوكل ومن بعده إلى المعتز. وكان ذا حظوة لديهم وإيثار . وقعت بينه وبين عبد الصمد بن المعذل مشادة ومهاجاة .وكان حسن السمر حلو الحديث صاحب أخبار غزير الرواية بارع النادرة . وكان له مجلس يسر من رآه يحضره أفاضل الادباء وأكابر الشعراء.

(٤) هو أبو شراعة أحمد بن محمد بن شراعة القيسى البكرى البصرى. شاعر من شعراء الدولة العباسية جيد الشعر جزله. وكان على تبديه فى طبعه ولفظه

فى العِلْمِ لِلْعُلَمَاءِ إِنْ يتفهَّمُوهُ مَوَاعِظُ
وإِذَا نَسِيتَ وَقَدْ جَمَعْتَ عَلاَ عَلَيْكَ الْحَافِظُ
وَلَقَدْ رَأَيْتُ الظَّرْفَ دَهْراً مَا حَوَاهُ اللاَّفِظُ
حَتَّى أَقَامَ طَرِيقَهُ عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ الجَاحِظُ
ثُمَّ انْقَضَى أَمَدٌ بِهِ وهُوَ الرَّئِيسُ الفَائِظُ (١)

فصيحاً بليغا صاحب رسائل وخطب، وكانت به لوثه وهوج مع سخاء وكرم. وكان يجود بما ملكت يده وما وسعته قدرته حتى ما كان يليق شيئا. وكان صديقا لابراهيم بن المدبر لا يكاد يفارقه فى سائر أحواله ولا يمنعه حاجة يسأله إياها. ولا يشفع لاحد فى شىء الا شفعه. وله معه ومع غيره من الكتاب والولاة أخبار وأحاديث ونوادر حسان. مات فى النصف الثانى من القرن الثالث للهجرة

(١) الفائظ : المائت . يقال : فاظ فلان، أى مات

الفصل الخامس والعشرون

في

خصائص الجاحظ ومميزاته

١

كان الكُتَّابُ ، إلى ماقبل ظهور الجاحظ ، يتمايزون متقاربين ، في ضروب من العلوم ، وصنوف من الآداب ، وألوان من المعرف : فكان كل واحد منهم يصرف همته ويَكُدُّه ويبذل قوته وجُهْدَه في الاختصاص بالضرب الواحد أو الضربين من أنواع العلوم ، أو يقف نفسه على الصنف أو الصنفين من طرائق الآداب ، أو يتجه نحو الشُّعبة وما يماثلها من ألوان المعارف . كأن يعد نفسه لأن يكون كاتبا في ديوان الخراج ، أو مترسلا في ديوان الإنشاء ، أو يقوم بحجابة بعض الأمراء ، أو يكون في أسباب أحد الوزراء . على أن يمازج هذه المؤهلات التي أعد نفسه بها ، شيء مما يدور حول عمله أو يتصل به من المعارف العامة . وكان إذا سمت همة أحدهم به إلى التطلع إلى شيء من العلوم والتوسع في بعض الفهوم ، مما يكون كالسَّلِيَة والحلية إلى جانب صناعته التي اتسم بها ، فلا يكاد يعدو في ذلك حد النَّدْوِ ، وتناول الأطراف ، دون التعمق والتحقق والنفوذ . أللهم إلا القليل منهم ممن كانوا يتسامون إلى الوزارة ، ويتطلعون إلى الصدارة ، أو مَن يرون الزيادة في العرفان زيادة في القدر والجاه ، وفي استتمام آلة التجمل والتثقف سببا إلى الكمال . وكانت المادة التي يكوِّنون بها معارفهم ، ويزيِّنون بها معلوماتهم ، لاتكاد تخرج عن حد الحفظ لكتاب الله الكريم ، وما ثبت لديهم من أحاديث الرسول ، صلوات الله عليه ، واستظهار الجيد من كلام الخلفاء الراشدين

وخطبهم الجامعة ، ولا سيما خطب الإمام على ورسائله البليغة وكلماته البارعة مضافا إلى ذلك القطعة الصالحة من الشعر الجاهلى ، وكلام الأعراب فى بواديهم ، والإلمام بفطنهم ومقاولاتهم فى نواديهم . بعد أن يكونوا أحكموا أبواب النحو والصرف ، وعرفوا أساليب اللغة واشتقاق ألفاظها وإجادة التعبير بها . أما إذا أضاف أحدهم إلى ذلك كله شيئاً من العلوم والآداب التى استُحْدِثَتْ فى المعارف العربية : كالمنطق والفلسفة، ووقف على حركات الفلك وأصول الهندسة ، وعلم من الطب ووظائف الأعضاء كفايته ، وشدا من الموسيقى وضوابط النغم غايته ، لُعدغُرة شادخة فى جبين أهل الصناعة، وصار إماماً يُرجع إليه فى عظائم الأمور ، ويُعتمد عليه فى تصريف جلائل الشؤون . أما الحساب والجبر وما إليهما فكان لابد منهما لكاتب الخراج وعامل الصدقات ،وصاحب ديوان الضياع والنفقات، وللقائم على المظالم والمؤامرات

٢

فلما ظهر الجاحظ واستحكمت له مواهبه ، لم تقف به همته عند إحدى تلك الغايات التى بلغ إليها أكابر الكتاب ممن تقدمه أو عاصره . فلم يشأ أن يتخصص كما تخصصوا ، ولم يُرد أن يتميز بالأنواع التى بها تميزوا ، بل حمل نفسه على أن يبزهم جميعا ، وأن يجعلهم يشتدون وراء خطوه إذ يمشى على مهل . فشاء أن يكون صدره دائرة معارف تحيط بأكثر ما عرف من علوم الانسانية وآدابها حتى عهده . وأنت إذا رَدَّدْتَ نظرك فى ثَبَتِ ما خلَّف من مصنفات ، أخذك الدَّهَشُ ، وتملكك العجب؟! الأنك تراه لم يكد يترك علما معروفا فى زمنه لم يضع فيه مؤلفا . ولم يدع فنا لم يكتب فيه مصنفا ، وقد يكون هذا المصنف أو ذاك المؤلف ، رسالة موجزة ، وقد يكون سفرا متعدد المصاحف والأجزاء . على أنك إذا قرأت له كتابا، أو تصفحت له رسالة ،فيما أجرى فيه قلمه من شُعب العرفان، حسبت أنه الواضع لهذا العلم أو ذاك

الفن الذى تردد نظرك فيه ، وخرجت منه مملوء س قوى اليقين بأنه قد لايحسن سواه . وقد يلمزه بعضهم بأنه كان كثير الاستطرادات ، كبير التهافت على الاستشهادات ، يحشد بها كتبه ، ويفخم بها أسفاره ، ولولا هـذا لكانت أقل ممـا هى عليه . ! وليس الحال كذلك ، ولا الأمر على ماذهب إليه ذلك اللامز ، ولكن هذا الحال، إن دل على شىء ، فإنما يدل على سعة اطلاع الجاحظ ،وعلى تبحره فى معارفه،وعلى حفول صدره بشتى المسائل والمعلومات على أن هذا النوع من مؤلفاته الـكبار إنما وضعه ليكون مدرسة للطالبين ، وَمَعْلَمَةً للدارسين . وهل كان العالم الاسلامى، بسائر أقطاره ونواحيه، إلا جامعة يُلقى فيها الجاحظ دروسه وثقافاته على طلابها بواسطة مؤلفاته!! ولهذا ما كان يَطْلُعُ له كتابٌ ، على أى بلد فى أى صقع ، إلا بادر العلماء إلى نَسخه ومُناقلته ، وعقد المجالس لتفهمه ومدارسته. وإلا تقدم الملوك والأمراء إلى تزيين محافلهم بالنظر فيه ، وترديد عباراته ومعانيه ،وتجميل خزائنهم بحفظه والتحفى به . ولقد حاول كثير من العلماء وأهل الأدب تلخيص بعض كتب الجاحظ وتجريدها مما بها من الاستطرادات، ومما حوت من الاستشهادات ، فكانت تذهب منها تلك الروح التى يحسها القارى ،متلألئة من تحت كل كلمة، وفى خلال كل فقرة ، وكانت تتلاشى تلك اللطيفة الجاحظية الساحرة التى يستشعرها الناظر المتصفح متجلية متوثبة فى اطراد المعانى وتسلسل الأفكار. فمنهم من كان يعدل عن التلخيص غيرة على هذه اللطيفة ، واستبقاء لتلك الروح . ومنهم من كان يمضى فى تلخيصه ، فيخرج وإذا بالملخَّص فى يده جثة هامدة.

٣

وهل وقفت عبقرية الجاحظ عند حد إتقان المعارف العامة والثقافات الشائعة على تنوعها حتى عهده ؟ كلا، فما كانت همته تعرف شيئا من الحدود فى العرفان؟! من أجل هذا عَرَضَ لـكثير من المسائل التى لم يفكر فيها أحد

غيره، وفتح للناس أبواباً كثيرة فى أمور شتى لم يكن من تقدمه من العلماء والكتاب وأهل الأدب يحسبونها مما يدخل فى صنوف الآداب . فكان من بين كتاب العربية أول من بحث فى طبائع الأشياء كالحيوان والنبات والمعادن ، وأقام أركان بحثه واستقرائه على المشاهدة والتجربة والاختبار . ورحل فى سبيل تحقيقه العلمى والطبيعى إلى كثير من الأقاليم والأقطار . وهذه الطريقة هى مفخرة علماء أوربا وأمريكا وانجلترا فى هذا العصر . وهو أول من كتب رسالة ملؤها السخرية والاستخفاف، وحشوها الجد الممزوج بالهزل ، وسداها الافتنان فى الأسئلة المبهتة ، ولحمتها التعجيز فى المحن المسكتة ، كرسالته إلى صديقه أحمد بن عبد الوهاب الثقفى التى دعاها « التربيع والتدوير » فهى بكر فى شأنها ، فريدة فى بابها . وقد حذا الكتاب من بعده حذوه فيها ، وترسموا خطاه فى أغراضها ومعانيها : فوضع أبو بكر الخوارزمىُّ الكاتب رسالته إلى أبى الحسن البديهى ، ووضع أبو الحسين أحمد بن فارس على ضوئها أصول فن المقامات ، وعنه أخذه أبو الفضل بديع الزمان الهمذانىُّ ، ثم توسع فيه أبو القاسم الحريرى وذهب فيه كل مذهب ، كما أنشأ ابن زيدون بعض رسائله على هذا النهج . ودرج الكتاب من بعدهم فى هذا الباب .

٤

وهو أول من شفّ له الحجاب فرأى فى مخالقات العامة وعاداتهم ، وفى تقاليدهم ومعاملاتهم ، وفى أحاديثهم وأسمارهم ، فنا يستروح الخاصة به ، ويرى العِلْيَةُ فيه جماما من كدهم فى جدهم ، كما رأى فيما تصالحوا عليه من التعبير عن خوالج نفوسهم ، وما تنبض به قلوبهم من الأمانى والآمال ، مما يصح تقييده والتفكه به ، والاعتبار بوجوه العبرة فيه ، والاستفادة مما

قد يفيد من نواحيه . وهو أول من استباح لنفسه التندر بالأصدقاء والإخوان ، تارة بالتلميح وذكر الصفات ، وأخرى بالتصريح وإبانة السمات . فقيد عليهم أنفاسهم ، وخلد غرائب أطوارهم وعجائب تصرفاتهم ، وشواذ أغراضهم ، وعرض لأخذهم بأغلاطهم وفلتات ألسنتهم ومساوى أعمالهم . وقد يجابه من شاء منهم بالنقد واللذع والتجريح ، غير عابئ بعتبهم ، ولا معتد بلائمتهم . وماذا كان يبلغ منه هذا العتب ، أو يصيبه من هذا اللوم ؟ إن ما أوتيه من قوة الحجة ، وما اختص به من براعة البيان وعزة البرهان وشدة اللسن كفيل برد عادية العادى وسطوة المتهجم . وهو أول من وضع كتابا فى فكرة من الفكر أو فى رأى من الآراء ثم نقضه بكتاب آخر . توسعاً منه فى البلاغة ، وتفننا فى البراعة . أو رجوعاً إلى مظنة الحقيقة التى قد يكون استبهم عليه سبيلها فى أول الأمر ، وإيثاراً للصواب . ولم يكن هذا النوع من المؤلفات التى يراجع نفسه فيها ، يعدو صنف الآراء والنحل والأهواء . وهو أول من ألف فى الأمور المتناقضة ، وأقام سوق الجدل بين الأشياء والحالات المتعارضة ، وابتدع من المعانى مالا يُظن أن يحتمل إلا المعنى الواحد ، فقد قالوا إنه صنع رسالة فى مفاخرة المسك والرماد ، وأنت تسائل نفسك : ماذا عسى أن يكون فى الرماد من معانى الافتخار ، حتى يدل بها على المسك ، وينافره ببيناتها وشواهدها ؟ ! ! وهو أول من وضع الكتب والرسائل فى المعانى والأغراض الغريبة عن متناول أفكار الكتاب . كقوله فى طبائع « البخلاء » وفى « حيل اللصوص » وفى أحوال « المُكَدِّين » وفى أصحاب العاهات الخَلْقية : كالحُول والعُور والعُرجان ، والبُرصان ، وكذلك فى ذوى العاهات الخُلُقية : كالكيرين ، والزناة ، والطفيليين ، والقحاب ، وفتيان السوء .

٥

وقد عزُبَ الرأى عن بعضهم حينما اطلع للجاحظ على بعض هذه الكتب فغمزه فى دينه ، ورماه فى اعتقاده ويقينه ، وظنه رجلا متساهلا فى حقوق الله قِبَلَه ، متسامحاً فى أوامر ربه ونواهيه ، وربما أجراه بعض خصومه مُجرى الزنادقة وأهل الإلحاد، حتى تقولوا عليه أقاويل فيما لم يخطر له ببال ولا ورد منه فى خاطر . وكيف يصدق فيه قول هؤلاء الخصوم الذين لا يريدون وجه الله فى خصومتهم ، وهو أول من وضع كتابا أقام فيه الحجة التى لا تدفع، والبرهان الذي لا يرد، على أن نظم القرآن معجز؟! حتى صار هو بوضعه هذا الكتاب إماما فى أمر الدين وفى صحة العقيدة ، وحتى قال بعض الأفاضل : إن الدليل على إعجاز القرآن إيمان الجاحظ به ... !! والحق الذى لا مراء فيه هو أن الجاحظ كان قوى الايمان ، ولكن إيمانَ الراسخين فى العلم ، الثابتين فى الفهم . وكان شديد الاعتقاد ، ولكن اعتقاد الخاصة من العارفين . فما كان يرى فى السلف ما يراه غيره من التقديس ، ولا يعتقد فيهم ما يعتقده العامة وأشباه العامة من العصمة والتنزيه . فليس عنده ، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الصحابة والتابعين ومن تلاهم، مَن تجب له العصمة من الخطأ والزلل ،أو مَن بَعُدَ به طبعه عن مواطن الخطل ، وما هم ، فى الحق والواقع ، إلا من أبناء آدم ، ركب فى طبائعهم ما ركب فى طبائع أبناء هذا الشيخ كافة، من المطامع والشهوات. فجائز عليهم كل ما يجوز على الناس جميعا من نوازع الشر ، وفواعل الخير ، ودوافع الفضل ،وعوامل النقص . وكل ما تعتلج به النفس البشرية من مطالب هذه الحياة .

٦

ومن أخص مميزات الجاحظ وأقوى سماته ، تلك الشخصية التى تراها

بارزة فى كل ماأجرى به قلمه ونضحت به قريحته . فاذا تناولت له أى كتاب أو أية رسالة ، وأخذت فى القراءة والمذاكرة والتصفح ، لاتلبث أن ترى هذه الشخصية القوية مطلة عليك من خلال السطور ، ومن بين حروف الكلمات . فلا تزال معها فى سمر مطرب ، وحديث معجب ، حتى تضع الكتاب من يدك . ومن مزاياه فى أسلوبه الذى تفرد به ، ذلك الطابع الخاص الذى استأثر بكل كلمة من كلماته ، وشاع فى كل جملة من جمله وعباراته ، وذلك أنه يبسط لك العبارة ويرقق من حواشيها حتى لتظن أنه قد أسف بها ، وأنه هبط عن مستوى البلغاء فى تحبيرها ، فاذا تأملتها فضل تأمل ، ثم حاولت احتذاءه فيها ، رأيته منك فى ذؤابة الثريا وفى مناط العَيُّوق . وهذه ميزة قد اختص بها من بين جميع الكتاب ، حتى إنه صار بها رأس مذهب فى الأدب ، كما هو رأس مذهب فى العقائد . فيقال فى الأساليب العربية ، إذا كانت قد بلغت أعلى طبقات البلاغة ، وأسمى منازل البيان ، وكانت واضحة المعانى ، سهلة الألفاظ ، نقية الكلمات : هذه عبارة جاحظية . ويقال فى الرسالة جمعت حُر الكلام إلى التبسط فى المعانى ، وكانت كثيرة الافتنان ، آخذة فيها الموضوعات بعضها بذوائب بعض ، يتنقل فيها القارىء من فن إلى فن ، ومن لون إلى لون ، ومن معنى مولد إلى معنى مبتكر : هذا أدب جاحظى . وله فى هذا المذهب أنصار وأتباع ، وتلاميذ وأشياع ، ظهر منهم رجال كانوا فى أعصارهم أئمة البلاغة وزعماء الفصاحة ، وفحول البيان . وكان منهم الأمراء والوزراء ، والسادة والكبراء ، والساسة والرؤساء . وما من كاتب منذ عهد الجاحظ إلى الآن إلا وللجاحظ فى عنقه مِنةٌ معقودةٌ ، أو يد مبسوطةٌ ، أو نعمة سابغة . ولقد صدق القاضى الفاضل فى قوله : « مامنا معاشر الكتاب إلا مَن دخل مِن كتب الجاحظ الحاره ، وشن عليها الغاره ، وخرج وعلى كتفه منها كاره »

٧

أما خصائصه النفسية ووجهات نظره فى الحياة ، فقد كان على ما ظهر منه ميالا بطبعه إلى التحلل من القيود التى تقف بأمثاله ونظرائه من معاصريه عند مقتضيات التقاليد وموجبات العادات . فهو لم يشأ اتخاذ زوجة تشاركه بأساء الحياة وضرائها ، بل انصرف إلى اتخاذ الجوارى والفتيات يتسرى منهن بما تطيب بها نفسه ، ويصبو إليها حسه ، يمسكها ما استقام أمرها معه ثم هو فى حل من أن يتركها فى خدمته وقضاء إربته ، أو إذا شاء دفع بها إلى السوق وجاء بغيرها والسوق بهن زاخرة ، والأموال لديه حاضرة . وقد كان عقيما ، فلم يعرف أنه ولد له ولد ، أو أعقب ذرية مدى حياته الطويلة .

ولست على رأى القائلين بأن العباقرة من أصحاب الدعوات العامة أو الخاصة وزعماء الأمم وعظماء الناس من القادة والرؤساء ، والفلاسفة والحكماء ، وأكابر أهل الأدب وفحول العلماء — ممن صرفوا جهودهم الجبارة وتفوقوا على من عداهم فى القيام على ما اختصوا به ووقفوا قواهم ومواهبهم عليه من جلائل الأعمال وعظائم الأمور فى الحياة العاملة أو المفكرة — قلما ولدوا الأولاد أو أعقبوا الذرية . وإن جاء أحد من هؤلاء بأولاد أو أعقب له أخلافاً نقلما جاءوا صالحين للحياة .

ويذهب أصحاب هذا الرأى فى تأييد رأيهم إلى ضرب الأمثال والاستشهاد بأسماء بعض هؤلاء العظماء ، حتى ليكادون يجعلون العقم طباعاً فى هذا النوع الممتاز من الناس . ولكنى أحسب أن العقم لم تختص به طائفة من الناس دون غيرها ، رقّت هذه الطائفة أو دنت ، سمت على سائر الطوائف الانسانية أو حبت معها فى مدارج الحياة . ولا هو طبيعة فى طبقة منهم عارض فى سواها . وما هو إلا أمر شائع فيهم على السواء . وأنت إذا لمسته فى العلية

والحامة ، وجدته ظاهر الأثر فى السفلة والعامه ، مقيساً بنسبه ومقاديره . والأصل فى الإنسان أن يكون ولوداً ، ما استوى خلقه وحسن تقويمه وتم تركيبه . وما العُقم إلا عارض يحدثه النقص فى تركيب بعض الأعضاء وعدم انتظامها فى تأدية وظائفها .

وقد يكون هذا النقص حاصلا فى الخلق والتكوين . وقد يأتى حادثاً لسبب من الأسباب الظاهرة أو الباطنة . والناس فى هذا سواسية لا يمتاز منهم فيه عظيم على حقير ، ولا يختص به كبير دون صغير . والقائلون باختصاص العباقرة به من بين الناس كافة ، حينما رأو العقم ظاهراً فيهم ، ظنوه وقفا عليهم وحسبوه من دلائل بطولتهم ، ومن علامات نبوغهم ، ومن آيات ظهور العبقرية فى مواهبهم ، مع أنه لا صلة هناك بين العُقم و بين السمو فى معارج الكمال البشرى . وما الأمر فى واقعه إلا أن العظماء من ذوى المواهب والأخطار فى كل أمة وفى كل جيل ما هم إلا أفراد ظاهرون ، وشرذمة قليلون .

وما مثل العظماء فى أممهم وأجيالهم إلا كالمنارة فى وسط المحيط الغِطَمِّ تترامى أشعتها اللامعة إلى الآماد فتجذب إليها أنظار السفار من كل صوب لتكون لهم أماناً من غوائل الأقدار ، وما تكاد تقع العيون على أضوائها أو تطلع هى على الحائرين بلألائها حتى تشيع منها فى النفوس شائعة الطمأنينة والأمن والسلام ، ولا تلبث أخيلة التفكير أن تتجه نحو عد خيوط النور المترسلة من ذؤابتها بمختلف الألوان الآخذة بمعاقد الأبصار . فاذا افتقدوها فى ليلة دامسة ، وقد أصابها شىء من العطب الذى لا يَسْلَم عليه شىء فى الوجود ، دفعهم ما فى صدورهم لها من إعجاب و إجلال ، إلى التظنى بأن هذا الضرب من المعاطب قلما أصاب إلا نوع المنار ، وأنه من علائم ما فيها من رفعة وهداية وازدهار . ومع هذا فماذا يكون قدر هذه المشكاة إذا هى قيست بما يكتنفها من

أمواج كالجبال ، وأثباج كالهضاب ؟ ! لاشك أنها فى جانب ذلك كله لاتكاد تعد شيئاً مذكوراً . على هذا ترى العظيم فى أمته وكل حالة من حالاته الطبيعية أو العارضة تعلن عن نفسها حتى لتوهم بعض ذوى التفكير أنها خاصة به وبكل عظيم مثله ، وأنها علامة عظمتهم وامتيازهم على الناس ، وذلك بخلاف ما إذا بدت تلك الحالات فى عوام الناس وأغمارهم ، فهى على كثرتها فيهم وارتفاع نسبتها بينهم ، لايكاد يُعنَى بها ، ولا يعمل حساب لشأنها ، ولا يلتفت إلى ما تحدث فيهم من آثار .

من أجل ذلك لا أرى مانعاً من القول بأن الجاحظ لم يكد ينقص كان به كما يعرو هذا النقص العُقَماء من الناس كافة ، وذلك بالرغم مما كان معروفا به من قوة البنية وتماسك الخلق وشدة المُنَّة ، حتى ان الفالج حينما وقع به لم يحل بينه وبين التفكير والكتابة والتأليف . . ! ! على أننى لم أقف له على رأى فى علة إعراضه عن التزوج واكتفائه بالتسرى . وهل كان يوجب الزواج أو كان يذهب إلى الامتناع عنه ! غير أن حالته التى درج عليها طوال أيام حياته تُبِينُ عن أنه كان يؤثر التسرى ويرى فيه متعة ، كما يُخال أنه كان يرى فى الزواج رِبقة .

٨

وكان الجاحظ يرى الاستمتاع بملاذ الحياة وأطايبها ، ويطمع فى أن ينال منها ما يمكن أن تصبو إليه أوسع النفوس البشرية أملا وغاية ، على أن يكون ذلك فى حدود التعقل والاتزان ، مع التحفظ والتستر والابتعاد عن مواطن الشبه ، حتى لاتهمز المروءة ولا تُغمز الكرامة . ولهذا لم يَرد ولم يُرو أن أحداً من خصومه استطاع أن ينال من سمعته أو يطعن فيه بما يحط من قدره

وكرامته . وقد كان خصومه من قوة اللَّسَن وشدة اللَّدَد واضطغان الحفيظة على أقوى جانب وأعظم منعة . فما قيل عنه أنه قارف إثما أو ارتكب جرما أو اجترح ذنبا . ولقد كان يعجب بأبي نواس [1] ويرى فيه قدوة فى تناول متع العيش ، وفى مباشرة أسباب العبث والمجون ، إلا أنه كان يأخذ فى أسمحها ، ويترك له أسمجها ، ويتقلب من أفضلها فى أعطاف النعم .

والحق أن عصر الجاحظ كان عصر الاستمتاع بكل ماتعتلج به النفس الانسانية من أمانى وآمال ، ومن خير وشر ، ومن نقص وفضل ، ومن علم وجهل ، ومن استقامة واستهتار ، ومن نسك وفتك ، ومن تقية واسترسال ،

(١) من أطرف ما يروى أن الجاحظ كان يقول : لا أعرف شعراً يفضل قول أبى نواس :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ... بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى ... وأضغاث ريحان جنى ويابس
حبست بها صحبى فجددت عهدهم ... وإنى على أمثال تلك لحابس
ولم أدر من هم غير ماشهدت به ... بشرقى ساباط الديار البسابس
أقمنا بها يوما ويوما وثالثا ... ويوما له يوم الترحل خامس
تدار علينا الراح فى عسجدية ... حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها ... مهى تدريها بالقسى الفوارس
فللخمر مازرت عليه جيوبها ... وللماء ما دارت عليه القلانس

قال الجاحظ : فأنشدتها أبا شعيب القلال فقال : يا أبا عثمان ، لو نقر هذا الشعر لطن . قلت : ويلك ما تفارق الجوار والخزف حيث كنت !!

قال الجاحظ : وقد أخذ أبو نواس قوله :

ولم أدر من هم غير ماشهدت به ... بشرقى ساباط الديار البسابس

من أبى خراش الهذلى :

ولم أدر من ألقى عليه قميصه ... سوى أنه قدسل عن ماجد محض

ومن إيمان و إلحاد ، ومن خطل وسداد . فكانت بغداد فى ذلك الدهر ، أشبه بلندن و باريس ونيو يورك و برلين وروما مجتمعين فى هذا العصر، فيها نزعات العقول، ومراح الأرواح، ومرد العيون ، وشهوات النفوس، وخلجات القلوب . غير أن الجاحظ كان يتناول شهوات نفسه ، ونزعات عقله . ولذائذ قلبه : فى تعقل وتلصف واتزان .

٩

وكانت بالجاحظ أنانية ، فكان يرى نفسه حقيقا بأن يستأثر بكل ما فى الحياة من مُتع وجاه عريض ، ولا يرى غيره أحق بشىء منها : فما لجأ إليه ذو حاجة إلا جعل لسانه حائلا دون قضائها ، ولا استعان به مستعين إلا كوى قلبه بجمر الخذلان . حتى لقد هُجى من خاصة أصدقائه على هذه الحالة شر هجاء . ولا أدرى كيف كان كذلك وهو الذى ملأ كتبه بذكر الأجواد والسمحاء ؟ وهلا كانت له قدوة حسنة بأحمد بن أبى داود ومكارمه التى غمرت كل رائح وغاد؟ والتى روى هو منها ما يجعله فوق أنداده ممن حضر و باد ؟! الظاهر أن تتبعه حركات البخلاء واستطلاعه طبائعهم ، واستقصاءه أعمالهم وأقوالهم قد أثر فيه ذلك الأثر . والنفوس بفطرتها نزاعة إلى النقائص ، سريعة إلى اكتساب الرذائل .

١٠

وكان على ما يظهر ميالا إلى المصانعة والمداراة ، فكان يرى إرضاء العامة وأشباه العامة بما لا كلفة عليه فيه ؟ وإلا فما هذه الأحاديث التى ملأ بها كتبه ، والتى لا يمكن أن يظن ظان أن مثل عقل الجاحظ فى قوة تركيبه وصحة تكوينه يتقبلها على أنها سليمة من الشوائب بعيدة من الأكدار ؟ أنا لا أرى لذلك

من تعليل إلا إنه ربما كان يرمى بروايتها وحشد كتبه بها إلى مصانعة العامة وترضيتهم عنه . لعله كان يقصد بروايتها الى جانب أبحاثه الفائقة فى العلوم والمذاهب والآداب ، أن تكون وسيلة الى جذب النفوس الى هـذه الأبحاث والاستفادة منها فى ظلها وتحت كنفها . وكلا الرأيين جائز ومقبول حتى يقوم الدليل على صحة أحدهما ونفى الآخر .

هذا ما ارتأينا من خصائص الجاحظ ، وهى بلا شك شذور من مزاياه . أما الالمام بما له من صفات ، أو استيعاب ماله من مناقب وسمات ، فأمر فوق متناول الأيدى والأقلام .

وقفـــة

يقول حسن بن أحمد بن محمد السندوبى، بعد حمد الله على توفيقه وشكره على عنايته التى شملنا بها منذ قدر لنا الوجود فى هذه الدنيا : الى هنا أمسك من عنان القلم الذى جرى بنا فى هذا المشوار ، من التحدث فى أدب الجاحظ ، والى هنا نقف به بعد أن جرينا به فى هذا المضمار ، من الكلام فى شؤون الجاحظ . وقد كنا وعدنا فى مقدمة الكتاب أن نثبت فى نهايته فصلا قائما برأسه يحوى ما وقع اختيارنا عليه من رسائله ومقالاته وآرائه ومروياته . وإن نذيله بما عثرنا عليه من آثاره التى لم يسبق لها عهد بالنشر والذيوع بالطبع . غير أننى رأيت أن أفرد هذا كله فى سفر خاص باسم .

رسائل الجاحظ

أجعله ملحقا بهذا الكتاب ومتمما له . لأنى رأيت أن فصلا واحدا يفرد له فى هذا الكتاب لا يكفى لاستيعاب ذلك كله . والله الموفق إلى الصواب

حسن السندوبى

القاهرة فى { ١ ربيع الثانى سنة ١٣٥٠
{ أول سبتمبر سنة ١٩٣١

المصادر والمراجع

كتاب الحيوان	الجاحظ	طبع مصر
كتاب البيان والتبيين	» بشرحنا عليه	» » سنة ١٩٢٦ـ٩٢٧
كتاب البخلاء	»	» »
مجموعة رسائل	»	» »
ثلاث رسائل	»	» »
تأويل مختلف الحديث	ابن قتيبة	» »
مروج الذهب	المسعودى	» »
الاغانى	أبو الفرج الاصبهانى	» »
الأمالى	أبو على القالى	» »
الامالى	السيد المرتضى	» »
الامالى	الزجاجى	» »
إعجاز القرآن	الباقلانى	» »
الملل والنحل	الشهرستانى	» »
الفرق بين الفرق	البغدادى	» »
الانساب	السمعانى	» لندن
الانتصار	الخياط	» مصر
سرح العيون	ابن نباتة المصرى	» »
معجم الادباء	ياقوت	» »
وفيات الاعيان	ابن خلكان	» »
فوات الوفيات	الصلاح بن شاكر الكتبى	» »
شرح لامية العجم	الصلاح الصفدى	» »
طبقات الاطباء	ابن أبى أصيبعة	» »
زهر الآداب	الحصرى	» »
أخبار الحكماء	القفطى	» »

بغية الوعاه	السيوطى	طبع مصر
حسن المحاضرة	«	« «
دائرة المعارف البريطانية	جزء ١٥ نمرة ١٢٦ الطبعة ١١	سنة ١٩١١
معاهد التنصيص	عبد الرحيم العباسى	طبع مصر
المعارف	ابن قتيبة	« «
طبقات الشعراء	ابن سلام	« «
النوادر	أبو زيد	« بيروت
تاريخ بغداد	الخطيب البغدادى	« مصر
الموشح	المرزبانى	« «
الفهرست	ابن النديم	« أوربا
طبقات اللغويين والنحاه	أبو بكر محمد الحسن الزبيدى	نسخة فتوغرافية بدار الكتب
الفخرى	ابن طباطبا	« مصر
تاريخ مختصر الدول	ابن العبرى	« بيروت
المختصر فى أخبار البشر	أبو الفدا	« مصر
الفصل فى الملل والاهواء والنحل	ابن حزم	« «
تاريخ سنى ملوك الارض	حمزه بن الحسن الاصبهانى	« برلين
المستطرف	شهاب الدين احمد الابشيهى	« مصر
طبقات الشافعية	ابن السبكى	« «
خبيئة الاكوان	محمد صديق حسن خان بهادر	« الاستانة
سوسنة سليمان	نوفل نعمة الله نوفل	« بيروت
البدء والتاريخ	منسوب لابى زيد البلخى أو لمطهر بن طاهر المقدس	« باريس
شرح نهج البلاغة	ابن أبى الحديد	« مصر
كتاب الوزراء والكتاب	لابى عبد الله الجهشيارى	« فينا سنة ١٩٢٦
الروض الأنف	السهيلى	« مصر
الألفاظ الفارسية المعربة	أدى شير	« بيروت

شفاء الغليل	الشهاب الخفاجي	طبع مصر
التاج	منسوب للجاحظ	» »
المحاسن والأضداد	» »	» »
رغبة الآمل من كتاب الكامل	السيد بن علي المرصفي	» مصر
كتاب الخراج	لابي يوسف القاضي	» »
تيسير الوصول	ابن الديبع الشيباني	» »
المواعظ والاعتبار	تقي الدين المقريزي	» »
معجم البلدان	ياقوت	» »
مجلة المقتبس	كرد علي	» دمشق
نزهة الالبا . في طبقات الادبا	ابن الانباري	» مصر
شرح المفضليات	للمؤلف حسن السندبي	» »
الجواهر المضية في طبقات الحنفية	أبو الوفاء القرشي المصري	طبع الهند
مقاتل الطالبيين	لابي الفرج الاصبهاني	» طهران
فتوح البلدان	للبلاذري	» مصر
الفصول المختارة	لعبيد الله بن حسان	» »
الحنين إلى الأوطان	منسوب للجاحظ	طبع مصر
سلوة الحريف	» »	» الآستانة
الاصابة	لابن حجر	» مصر
الأحكام السلطانية	للماوردي	» »
تاريخ الأمم الاسلامية	الخضري	» »
خزانة الأدب	البغدادي	» »

وهذا بخلاف مطالعات شتى في دواوين التاريخ وأسفار الأخبار وكتب الادب ذهب عن الذاكرة عدها وإحصاؤها